البعد المقاصدي للحجّ والعمرة في القرآن الكريم
دراسة تأصيلية

The purposeful dimension of Hajj and Umrah in the Holy Quran
A fundamental study

أ.د نور الدين سكحال جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة، الجزائر
Prof. Noureddine Soukehal, Emir Abdelkader University of Islamic Sciences, Constantine, Algeria

الملخّص:

استقرأت في مداخلتي الموسومة بـ" البعد المقاصدي للحج والعمرة في القرآن الكريم دراسة تأصيلية" القرآن الكريم، وجمعت منه الآيات القرآنية المتعلقة بالحج والعمرة، ثمّ قمت بتصنيفها باعتبار الموضوعات التي أشارت إليها إلى ثلاثة محاور، محور يتعلق بالجذور التاريخية لشعيرة الحج، ومحور يختص بالتشويه الذي لحق أعمال هذه الشعيرة في العصر الجاهلي، ومحور يتعلق بالآيات التي تناولت أعمال الحج والعمرة، ثمّ قمت بتحليل الآيات لاستخراج البعد المقاصدي منها، واستخلصت منها مجموعة من المقاصد صنّفتها إلى: مقاصد إيمانية، مقاصد أخلاقية، مقاصد اجتماعية.

الكلمات المفتاحية: البعد المقاصدي- الحج والعمرة- القرآن الكريم.

Abstract:

In my intervention entitled "The Purposeful Dimension of Hajj and Umrah in the Holy Qur'an, An Original Study", I extrapolated the Holy Qur'an, and collected from it the Qur'anic verses related to Hajj and Umrah, then I classified them according to the topics that referred to them into three axes, an axis related to the historical of the ritual of Hajj, and an axis concerned with the distortion that The right to the actions of this ritual in the pre-Islamic era, and an axis related to the verses that dealt with the actions of Hajj and Umrah, then I analyzed the verses to extract the purposes dimension from them, and extracted from them a set of purposes that I classified into: faith purposes, moral purposes, and social purposes.

Keywords: The Purposeful Dimension - Hajj and Umrah - the Holy Quran.

تمهيد

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه.

يمكن لأيّ باحث في القرآن الكريم، ومتدبّر لآياته وسوره، أن يدرك حقيقة أنّه كتاب أسّست أحكامه في المجالات كلّها العقدية منها والتعبّدية والأخلاقية والاجتماعية على الإقناع بأساليب تجمع بين مخاطبة العقل ومخاطبة الوجدان، ليسلّم العقل ويطمئن الوجدان، فتتحرك دواعي العمل في الإنسان المخاطب.

ومن أهمّ الأساليب العقلية والوجدانية التي ينهجها القرآن الكريم في الإقناع بفعل ما أرشد إلى العمل به، والابتعاد عمّا نهى عنه، أسلوب التنبيه إلى المقاصد من أوامره ونواهيه، ونلحظ حضور هذا الأسلوب في آياته الكثيرة المتضمّنة للأحكام التكليفية.

وتتنوع أساليب إقناع المكلّف بذكر المقاصد، بين التنبيه المباشر إليها بعد الأمر أو النهي، أو التنبيه إلى كونها صادرة من إله عليم حكيم أو حكيم عليم، اتّسم علمه بالإحاطة، ولا تعني هذه الإشارة اعتبار الناس عاجزين عن إدراكها، بل الهدف منها دفعهم إلى تحصيل المعارف والعلوم التي تجعلهم قادرين على الوصول إلى الأسرار والحكم التي تختفي من وراء أوامره ونواهيه، وتارة أخرى يكون التنبيه إلى المقاصد في سياق الآيات التي وردت ضمنها هذه الأوامر والنواهي، والكشف عنها يحتاج إلى مزيد من التدبّر وربط للآيات بعضها ببعض، وفهم لها في سياقها.

ويجب أن نذكر هنا أنّ التنبيه إلى مقاصد العبادة لا يقتصر على الإقناع بممارستها فقط، بل الهدف منه كذلك دعوة المكلّف إلى ملاحظة ممارسته التعبّدية في ضوء الآثار المترتّبة عنها، فإذا وجد مقاصدها متحقّقة في هذه الآثار، كان ذلك دليلا على أنّ ممارسته لها كانت بشكل صحيح، أما إذا وجد عكس ذلك أنّها لم تثمر المقاصد التي نبّهت إليها النصوص القرآنية كان ذلك دليلا على حدوث خلل في القيام بها، وهو ما تنبّه إليه آيات قرآنية منها مثلا قول الله تعالى حديثا عن صلاة المنافقين التي لم تحقّق المقصد الأساس منها وهو ذكر الله تعالى والتذكير به سبحانه، وجعل المقيم لها من الذاكرين لله تعالى في أحواله المختلفة، قال الله تعالى:{**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا**}[النساء: 142]، وفي الآية تأكيد على عدم تحقّق المقصد، وبيان لأسباب ذلك من كذب في إيمانهم، وعدم تعظيمهم وتقديرهم للصلاة، فهم كسالى إذا قاموا إليها، ولا يفعلونها إلا من رياء، ومثاله كذلك في سورة الماعون تخلّف الآثار الاجتماعية لإقامة الصلاة، بسبب خلل في ممارستها، بالسهو والغفلة عنها، وممارسة المصلي لها رياء، كما يدلّ عليه قوله تعالى:{**فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**} [الماعون: 4-7].

1-أسلوب الإقناع بذكر المقاصد في مجال العبادات:

لا ينحصر توظيف القرآن الكريم لهذا الأسلوب في مجال دون آخر، بل يشملها جميعا بما في ذلك مجال العبادات الذي قد يظنّ البعض أنّه مجال تتلقى الأوامر فيه وتمتثل دون الحاجة إلى البحث عن المقاصد والأسرار والحكم، تعبيرا من المكلّف عن عبوديته لله تعالى، التي لا تتحقق إلاّ بامتثال ما أمر به ولو لم يدرك سرّه وحكمته، وعدم امتلاك القدرة على تعليل كثير من الأحكام المتعلّقة بهذا المجال، التي قد يقول البعض عنها إنّها غير قابلة لأن يدرك العقل مقاصدها وأسرارها.

وربما كان منطلق هؤلاء ما ذكره علماء الأصول، وصاغه الإمام الشاطبي في موافقاته على شكل قادة نصّها:" الأصل في العبادات بالنسبة إلى المكلّف التعبّد دون الالتفات إلى المعاني، وأصل العادات الالتفات إلى المعاني"[1]، وفصّل بعض الدارسين هذا المعنى فقال:" الأصل في العبادات أنها تؤدّي امتثالاً لأمر الله، وأداءً لحقّه على عباده، وشكراً لنعمَائه التي لا تُنكر، وليس من اللازم أن يكون لهذه العبادات ثمرات ومنافع في حياة الإنسان المادية، وليس من الضروري أن يكون لها حكمة يدركها عقله المحدود. إنها ابتلاء لعبودية الإنسان لربّه، ولا معنى لأن يُدرك السرّ في كل تفصيلاتها. فالعبد عبد، والرب رب، وما أسعد الإنسان إذا عرف قدر نفسه"[2].

ولم يقصد الشاطبي نفي الحكم والمقاصد عن العبادات مطلقا، وإنما القدرة على إدراك العلل والحكم التفصيلية للعبادات كعدد ركعات الصلوات، أما المقاصد والحكم الجملية فيمكن إدراكها، بل إن النصوص القرآنية والنبوية أشارت إلى بعضها، وقد أشار الشاطبي إلى بعضها، حين تحدّث عن مقاصد الصلاة كما سنورده.

وفي تقديرنا لا يتنافى التزام موقف العبودية لله سبحانه بقول سمعنا وأطعنا مع البحث عن الأسرار والحكم، لأنّ من شأن هذا البحث أن يزيد المكلّف إيمانا واقتناعا بما أمر بامتثاله، وإدراكا لعلم وحكمة ربّه سبحانه، ومثله في ذلك مثل الخليل إبراهيم عليه السلام الذي سأل ربّه أن يريه كيف يحيي الموتى طمعا في تحقيق طمأنينة القلب لما آمن به، قال الله تعالى:{**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**} [البقرة: 260]

ويصدّق على هذه الملاحظة آيات كثيرة في كتاب الله سبحانه تتعلّق بالممارسة التعبّدية سواء كانت صلاة أم زكاة أم صياما أم حجّا، أشارت إلى مقاصد تشريع هذه العبادات، ويمكننا اختيار بعض النماذج التي نبّهت فيها نصوص القرآن إلى مقاصد بعض هذه العبادات.

نماذج لمقاصد الصلاة:

الصلاة كعمل يصل الإنسان بربّه سبحانه، شرع في أوقات معيّنة وبكيفيات محدّدة، عبادة من أهمّ العبادات، بل هي الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين، لم تخل النصوص القرآنية التي أمرت بإقامتها من الإشارة المتكرّرة إلى المقاصد المتنوعة التي شرعت لتحقيقها، منها المقاصد الروحية التي نبّه عليها مثلا قول الله تعالى خطابا لنبيه موسى عليه السلام:{**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**} [طه: 14]، والمقاصد النفسية في مثل قوله تعالى:{**إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا، إِلَّا الْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ** } [المعارج: 19-23]، والمقاصد الأخلاقية في مثل قوله تعالى:{**اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**}[العنكبوت: 45]، والمقاصد الاجتماعية في مثل قوله تعالى:{ **فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**} [الماعون: 4-7].

ويقسّم الإمام الشاطبي مقاصد الصلاة إلى مقاصد أصلية كالخضوع لله – سبحانه- بإخلاص التوجّه إليه، والانتصاب على قدم

---

[1] – أبو سحاق الشاطبي، الموفقات في أصول الشريعة، تحقيق عبد الله دراز، د.ط، ج2، دار الفكر العربي، د.تا، ص.300.

[2] – ناصر يوسف عبد الله، مقاصد العبادة في القرآن الكريم، مجلة العلوم الإسلامية، العدد 14، المجلد 2، 1434هـ/ 2013م، كلية العلوم الإسلامية، الجامعة العراقية، https://coism.mosuljournals.com/article_75691_9390eeba2edbe17a10dab39458f6696c.pdf.

الذلة والصغار بين يديه، وتذكير النفس بالذكر له، ومقاصد تابعة كتطهر المصلّي من الأدناس، والاستراحة من أنكاد الدنيا، وطلب الرزق بها[1].

نماذج لمقاصد الزكاة:

وإن كان المقصد من تشريع الزكاة واضحا وهو العودة بالفضل من أموال الأغنياء على الفقراء والمساكين والمحتاجين عموما، فإنّ القرآن الكريم ينبّه إلى مقاصد أخرى تعود على المزكّي نفسه، منها تطهيره من شحّ نفسه الذي هو من المهلكات[2] وسبب لكثير من الاختلالات في العلاقات، ولا فلاح يتحقق للإنسان دون وقاية نفسه منه، قال الله تعالى:{ **وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**} [الحشر: 9]، ومن مقاصدها التي وردت الإشارة إليها في سياق الآيات التي أمرت بها، تطهير نفس صاحبها وتنميتها وتزكينها، وتمكينه من التوبة من ذنوبه وأخطائه، قال الله تعالى:{**وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**} [التوبة: 102-104]، ومن مقاصدها المتعلقة بمال المزكّي تنميته بتخليصه من الشوائب وجعل البركة فيه ومضاعفته، كما تنبّه عليه الآيات التي دعت إلى الإنفاق، ووعدت المنفق بالخلف والبركة في ماله، ومنها قول الله تعالى:{ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**}[سبأ:39].

ونفس الأمر نلحظه بالنسبة للعبادات الأخرى التي دعا القرآن الكريم إليها كالصيام والحج والعمرة وتلاوة القرآن والذكر والدعاء، وسنترك التفصيل في المقاصد التي يؤكّد عليها القرآن الكريم في حديثه عن عبادة الحج التي هي موضوع مداخلتنا إلى موضعها المناسب من هذه الورقة.

2-آيات الحج في القرآن الكريم:

ورد الحديث عن الحج وشعائره وأحكامه في خمس سور قرآنية هي: سورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة المائدة، وسورة التوبة، وسورة الحج، أربع منها مدنية، وواحدة مكية هي سورة الحج، وهي السورة الوحيدة التي سميت باسم ركن من أركان الإسلام، وذكر الحج فيها دال على أنّ الدعوة إليه بدأت في الفترة المكّية.

قال العلامة ابن عاشور:" ووجه تسميتها سورة الحج أنّ الله ذكر فيها كيف أمر إبراهيم عليه السلام بالدعوة إلى حج البيت الحرام، وذكر ما شرع للناس يومئذ من النسك تنويها بالحج وما فيه من فضائل ومنافع، وتقريعا للذين يصدّون المؤمنين عن المسجد الحرام وإن كان نزولها قبل أن يفرض الحج على المسلمين بالاتفاق، وإنما فرض الحج بالآيات التي في سورة البقرة وفي سورة آل عمران"[3] .

وقد فصّل القرآن في الحديث عن أعمال الحج ما لم يفصل في غيره من العبادات، وهذا يعود لسببين اثنين، أولهما المكانة الكبيرة لهذه العبادة بين العبادات الإسلامية، ثانيهما لتصحيح ما أحدث فيها من تحريف في ممارستها في الجاهلية عن شريعة إبراهيم عليه

---

[1] – الشاطبي، مرجع سابق، 400/2

[2] – عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه". رواه الطبراني والبزار بسند حسن.

[3] – الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج17، الدار التونسية للنشر، تونس، 1980، ص.179

السلام، قال العلامة الطاهر بن عاشور: "وقد ظهرت عناية الله تعالى بهذه العبادة العظيمة، إذْ بسط تفاصيلها وأحوالها مع تغيير ما أدخله أهل الجاهلية فيها"[1] .

وينبغي أن نتساءل قبل إيراد الآيات التي تحدثت عن شعيرة الحج، هل آيات الحج في القرآن الكريم هي فقط تلك الآيات التي تحدّثت عن أحكام شعائره من إحرام وطواف وسعي ووقوف بعرفة ورمي للجمرات وهدي؟ أم تشمل غيرها من الآيات التي تحدّثت عن أمور لصيقة بشعيرة الحج وإن لم تتضمن الإشارة إلى أعماله وأحكامه؟.

والإجابة عن هذا التساؤل هي التي تحدّد لنا المجال الذي نبحث فيه لجمع هذه الآيات، والحقيقة التي يدركها المتدبّر لآيات القرآن الكريم المتّصلة بالحجّ أنّها لا تتعلّق كلّها بأعمال هذه الشعيرة وأحكامها، بل آيات كثيرة منها تتعلّق بأمور لصيقة بالحج من حيث التاريخ والأمكنة والشخصيات، فآيات كثيرة جاءت آيات أحكام الحج في سياقها تحدّثت عن النبي إبراهيم عليه السلام وعن المسجد الحرام وبنائه وبعض أمكنة الشعائر، واعتقادات وممارسات خاطئة لهذه الشعائر.

وانطلاقا من هذه الإجابة فإننا سندرج في حديثنا عن آيات الحج في القرآن الكريم كلّ الآيات التي تناولت أمورا لها صلة بشعيرة الحج وإن لم ترد فيها أحكام تتعلق بها، وسيتبين لنا أنّ هذه الآيات وإن لم تحدّد تفاصيل لأعمال الحج، فإنّها تنبّه إلى مقاصد مهمّة شرعت لتحقيقها.

ولأنّ عدد الآيات التي تحدّثت عن الحج كبير بحسب التحديد الذي اخترناه، فإنّنا سنكتفي في عرضنا لها بنماذج منها، يشير كلّ نموذج منها إلى جانب من جوانب حديث القرآن الكريم عن هذه الشعيرة.

بعد قراءتنا المتكررة والمتدبّرة لآيات الحج في القرآن الكريم وملاحظتنا للمعاني التي طرقتها، رأينا أن نعرض ما اخترناه من نماذج منها ضمن ثلاثة محاور:

المحور الأول نخصّصه للآيات التي تحدّثت عن الجذور البعيدة لشعيرة الحج، وبيّنت البدايات الأولى لممارستها في حياة المؤمنين.

والمحور الثاني نخصّصه للآيات التي تحدّثت عن التحريف والتشويه الذي لحق هذه الشعيرة وأبعدها عن صورة الحج الإبراهيمي.

والمحور الثالث نجعله للآيات التي أشارت إلى أعمال الحج والأحكام المتعلّقة بها.

نماذج من آيات المحور الأول:

وغالب الحديث في آيات هذا المحور هو عن النبي إبراهيم عليه السلام وهجرته بأهله إلى مكة وهي حينئذ واد غير ذي زرع، ليتخذها كنقطة انطلاق لتأسيس مجتمع موحّد بعيد عن الشرك بكلّ مظاهره.

ونعرض نماذج من الآيات المندرجة في هذا المحور بحسب الترتيب الزمني للأحداث المتّصلة بحياة إبراهيم عليه السلام ودعوته:

-الآيات 35-41 من سورة إبراهيم، ونورد منها آية واحدة هي الآية 37 التي ذكرت أخذ إبراهيم عليه السلام لزوجه هاجر وابنه إسماعيل وهو رضيع إلى صحراء قاحلة ليشرع في إنشاء مجتمع جديد على أسس التوحيد.

قال الله تعالى:{ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**} [إبراهيم: 37].

[1] - المرجع نفسه، 231/2

ويؤكد الإمام ابن كثير أنّ هذا الدعاء {ربنا ليقيموا الصلاة...} كان بعد بناء البيت فيقول:" وهذا يدلّ على أنّ هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولّى عن هاجر وولدها – وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه – تأكيدا ورغبة إلى الله – عزّ وجل–، ولهذا قال:{عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ}"[1].

–الآيات 123–143 من سورة البقرة، وهي آيات تحدّثت عن نجاح إبراهيم عليه السلام في الابتلاءات، وتبوئه مقام الإمامة والنبوة، وشروعه في بناء البيت هو ابنه إسماعيل عليهما السلام، وتكليفهما بتطهير البيت للمقبلين عليه من العبّاد، ورفعهما لبناء البيت، والدعاء لأهل مكة بأن يبعث الله فيهم رسولا منهم يقوم بوظائف النبوة فيهم، وعمله على تأسيس أمّة مسلمة لله تعالى بعمله كمسلم أسلم الإسلام الكامل لربّه وبوصية ذريته أن لا يكون موتهم إلا على الإسلام.

وفي سياق هذه الآيات تأتي الإشارة إلى الأمة الوسط التي هي امتداد لهذا النبي الكريم، لتقوم بواجب الشهادة على الناس، كما قام به إبراهيم عليه السلام من قبلها.

وفي هذه الآيات من سورة البقرة وردت الإشارة إلى بعض أعمال الحج مثل الصلاة عند مقام إبراهيم والطواف بالبيت والاعتكاف والصلاة فيه، ولم ترد الإشارة إلى مقاصد هذه الأعمال بشكل مباشر، وإنما بصيغة غير مباشرة كما سنبّينه.

ومن هذه الآيات نعرض الآيات الآتية:

{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ، وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}[البقرة: 124–125].

{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: 127]

{وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ، إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [البقرة: 130–131].

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: 143].

–الآيات 95–97 من سورة آل عمران

وهي قوله تعالى:**{قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}** [آل عمران: 95–97]

ويتواصل الحديث فيها عن إبراهيم عليه السلام الذي كان حنيفا بعيدا عن الشرك، والتأكيد على أنّ أول بيت أسّس لعبادة الله هو المسجد الحرام في مكّة المكرمة، وفيه آيات بيّنات على توحيد الله وعبادته وعدم الإشراك به وإسلام الوجه له، منها مقام إبراهيم عليه السلام، وتنبيه إلى الأمن الذي جعله الله من خصائص هذا البيت استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام، وربط لشعيرة الحجّ بهذا البيت.

نماذج من آيات المحور الثاني:

[1] – أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط1، دار ابن حزم، بيروت، 1420هـ/2000م، ص.1037.

وهي آيات نزلت لتصحيح التشويه الذي ألحق ببعض أعمال شعيرة الحج ومناسكها، كتغيير مواقيت الحج بحسب المصلحة وهو ما سمّاه القرآن الكريم النسيء، وإتيان الأبواب من ظهورها بعد الفراغ من أعمال الحج، والطواف بالبيت عراة ومكاء وتصدية، والامتناع عن التّجارة وممارسة الأعمال الدنيوية في أيام الحج.

ومن هذه الآيات نذكر:

-قوله تعالى:{**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**}[البقرة: 189].

في هذه الآية من سورة البقرة إشارة إلى جعل مواقيت محدّدة للشروع في الحج والفراغ منه، ووسيلة تحديدها هي مراقبة حركة الهلال، وفيها ردّ بطريقة غير مباشرة على ما كان يفعله المشركون من تحريك لمواقيت الحج بحسب ما تفتضيه مصالحهم في التجارة أو في الحرب على أعدائهم، وإشارة أخرى إلى ممارسة خاطئة انتشرت في الجاهلية وهي اعتقاد العائد من الحج أنّه لا ينبغي أن يدخل إلى بيته بعد عودته من حجه من الباب، بل من خلفها، روى مُسْلِمٌ عَنِ البَرَاءِ بْنِ عازِبٍ قالَ: كانَتِ الأنْصارُ إذا حَجُّوا فَجاءُوا لا يَدْخُلُونَ مِن أبْوابِ بُيُوتِهِمْ ولَكِنْ مِن ظُهُورِها فَجاءَ رَجُلٌ فَدَخَلَ مِن بابِهِ فَكَأنَّهُ عُيِّرَ بِذَلِكَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ"[1] .

- قال الله تعالى: {**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ**} [البقرة:158].

في هذه الآية من سورة البقرة ورد الحديث عن منسك من مناسك الحج وهو السعي بين الصفا والمروة، وبيّنت الآية أنّ السعي بينهما في الحج والعمرة من الشعائر، وأنّه لا جناح على كلّ حاج ومعتمر أن يطوّف بينهما، سواء أداء للواجب، أو من باب التطوع بعد الفراغ من الواجب، ووعد الله المتطوّعين بالثواب الجزيل، وذكر المفسّرون أنّ سبب نفي الجناح ورفع الإثم على الساعي بينهما، ما كان يشعر به بعض المسلمين من الأنصار من حرج في السعي بين الصفا والمروة لأنّه يذكرهما بما كانوا يفعلونه في الجاهلية تعظيما لمناة، ففي البُخارِيِّ سَأَلْتُ أنَسَ بنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عنْه عَنِ الصَّفَا والمَرْوَةِ فَقالَ :كُنَّا نَرَى أنَّهُما مِن أمْرِ الجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كانَ الإسْلَامُ أمْسَكْنَا عنْهما فأنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {**إِنَّ الصَّفَا والْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فمَن حَجَّ البَيْتَ أوِ اعْتَمَرَ فلا جُنَاحَ عليه أنْ يَطَّوَّفَ بهِمَا**} [البقرة: 158] [2].

-قوله تعالى:{**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ**}[البقرة: 198].

ذكر المفسّرون أنّ الحجاج في الجاهلية كانوا يتحرّجون من ممارسة أعمالهم الدنيوية المتمثّلة أساسا في التجارة في الأسواق، فتحرّج بعض المسلمين من فعل ذلك، ورأوا أنّ فيها تنافيا مع التفرّغ الكامل للعبادة في موسم الحجّ، فنزلت هذه الآية تنفي الحرج عنهم وتدعوهم إلى القيام بأعمالهم ابتغاء فضل الله، وهو ما يجعلها هي كذلك نوعا من العبادة لله.

---

[1] - أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسبوري، صحيح مسلم، ط1، درا إحياء الكتب العربية، بيروت، 1412هـ/1991، 4/ 2319، ، حديث رقم: 3026.

[2] - أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، ط1، ، دار ابن كثير، دمشق بيروت، 1423هـ/ 2002م ، سورة البقرة باب قوله إن الصفا والمروة من شعائر الله، حديث رقم: 4496.

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:" كَانَتْ عُكَاظُ، ومَجَنَّةُ، وذُو المِجَازِ أَسْوَاقًا فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَتَأَثَّمُوا أَنْ يَتَّجِرُوا فِي المَوَاسِمِ، فَنَزَلَتْ: {ليسَ عَلَيْكُم جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِن رَبِّكُمْ}. فِي مَوَاسِمِ الحَجِّ"[1].

نبّه السعدي إلى بعض الضوابط التي يجب على الحاج التزامها حتى لا يكون عليه حرج في ممارسة أعماله الدنيوية في حجه فقال :"لما أمر تعالى بالتقوى، أخبر تعالى أنّ ابتغاء فضل الله بالتكّسب في مواسم الحج وغيره، ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو الحج، وكان الكسب حلالا منسوبا إلى فضل الله، لا منسوبا إلى حذق العبد، والوقوف مع السبب، ونسيان المسبب، فإنّ هذا هو الحرج بعينه"[2].

- قوله تعالى:{**وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ** } [الأنفال: 35]

يتحدّث هذا النص من سورة الأنفال عن ممارسة سيّئة للطواف بالبيت كانت تصدر عن المشركين، تتمثل في تجرّ الحجاج المشركين من ثيابهم حين طوافه بالبيت، وتصفيرهم وتصفيقهم، فقد نقل الرازي في تفسيره بعد أن بيّن معنى المكاء والتصدية قول ابن عباس رضي الله عنهما: " كانت قريش يطوفون بالبيت عراة يصفرون ويصفقون"[3]، كما نفل ابن كثير في تفسيره قول ابن عمر رضي الله عنهما:" كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفقون ويصفرون"[4].

-قوله تعالى:{**لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ**} [الحج: 33]

وفيه إشارة إلى ممارسة خاطئة سادت عند الجاهليين حين حجّهم حيث كانوا يمتنعون عن الانتفاع بالأنعام التي خصّصوها لتكون قربى لآلهتهم، فلا يركبونها، ولا يشربون من لبنها، ولا يأكلون من لحمها، وقد وجد بعض المسلمين نوعا من الحرج أثناء حجهم في الانتفاع بما ساقوه من هدي، فوجههم رسول الله ﷺ إلى ترك ما كان يفعله المشركون، والانتفاع بهديهم، عملا بهذه الآية من سورة الحج.

روى الإمام مالك في الموطأ عن أبي هريرة : "أنّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – رأى رجلا يسوق بدنة فقال : اركبها؟ فقال: إنها بدنة، فقال: اركبها، فقال: إنها بدنة، فقال: اركبها، ويلك في الثانية أو الثالثة"[5]

قال الطاهر بن عاشور في تفسير هذه الآية:" والمنافع: جمع منفعة، وهي اسم النفع، وهو حصول ما يلائم ويحف، وجعل المنافع فيها يقتضي أنها انتفاع بخصائصها مما يراد من نوعها قبل أن تكون هديا .

وفي هذا تشريع لإباحة الانتفاع بالهدايا انتفاعا لا يتلفها، وهو رد على المشركين إذ قلّدوا الهدي وأشعروه حظروا الانتفاع به: من ركوبه وحمل عليه وشرب لبنه، وغير ذلك."[6].

نماذج من آيات المحور الثالث:

وهي الآيات التي ورد فيها ذكر أعمال الحج وأحكامه، وهي في عددها أقلّ من غيرها من آيات المحورين السابقين، ونكتفي بعرض نموذجين منها.

---

[1] – المصدر نفسه، حديث رقم: 2050، وانظر تفسير ابن كثير، ص. 261.

[2] – عبد الرحمن الناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ط1، 1423هـ/ 2002م، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2/ 92.

[3] – فخر الدين الرازي، تفسير الفخر الرازي، ط1، 1401هـ/1980م، دار الفكر، بيروت، 159/15.

[4] – ابن كثير، مرجع سابق، ص. 838.

[5] – مالك بن انس، الموطأ برواية أبي مصعب الزهري، ط1، دار التأصيل، القاهرة، 1437هـ/ 2016 م، كتاب الحج باب ما يجوز من الهدي، حديث رقم: 1106.

[6] – الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، 257/17-258.

-الآيات 196-203 من سورة البقرة وهي آيات أشارت إلى مجموعة من أعمال الحج والعمرة ونبّهت إلى كيفية تدارك بعض الأعمال التي لم يتمكن الحج من القيام بها بسبب ظروف طارئة، وإلى أخلاق يجب على الحاج الابتعاد عنها في فترة الحج، ونفي للحرج عن ممارسة الأعمال الدنيوية، وذكر لله عند المشعر الحرام ووقوف بعرفات، ورمي للجمرات.

قال الله تعالى:{**وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ، الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (197) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ، ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ، وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ،**} [البقرة: 196-200].

-الآيات 94-97 من سور المائدة، وقد أشارت الآية إلى تحريم الصيد على المحرم، والجزاء الذي يترتّب عن مخالفته لهذا النهي متعمّدا، وكون صيد البحر حلالا للمحرم مع حرمة الكل من صيد البر، وإشارة إلى الحكمة من تحريم ذلك على المحرم، قال ابن عاشور في بيان علاقة قوله تعالى:{جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ} بما سبقه :" اسْتِئْنافٌ بَيانِيٌّ لِأَنَّهُ يَحْصُلُ بِهِ جَوابٌ عَمّا يَخْطُرُ في نَفْسِ السّامِعِ مِنَ البَحْثِ عَنْ حِكْمَةِ تَحْرِيمِ الصَّيْدِ في الحَرَمِ وفي حالِ الإحْرامِ، بِأنَّ ذَلِكَ مِن تَعْظِيمِ شَأْنِ الكَعْبَةِ الَّتِي حُرِّمَتْ أرْضُ الحَرَمِ لِأجْلِ تَعْظِيمِها، وتَذْكِيرٌ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلى سُكّانِهِ بِما جَعَلَ لَهم مِنَ الأمْنِ في عَلائِقِها وشَعائِرِها"[1].

قال الله تعالى:{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ، أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ، جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**} [المائدة 94-97]

3-مقاصد الحج والعمرة في القرآن الكريم

بعد أن حدّدنا في العنصر السابق أهمّ المعاني التي تدور عليها آيات الحج في القرآن الكريم، ونبّهنا إلى أنّ غالب هذه الآيات لا تتحدّث عن أحكام أعمال الحج بل عن أمور لصيقة بها أشخاصا وأمكنة لها دور كبير في التنبيه إلى المقاصد من تشريع الحج، والتربية العملية للحاج أو المعتمر لتحقيقها، كما ترد الإشارة إلى هذه المقاصد في سياق الآيات التي تناولت أعمال الحج والعمرة.

[1] -- الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، 54/7.

كما نذكّر هنا بما أوردناه في التمهيد لمداخلتنا من أنّ التنبيه إلى مقاصد العبادة له غرضان أساسيان، أولهما إقناع المؤمن بالإقبال على العبادة ليجني ثمارها المتعدّدة، وثانيهما امتلاك مؤشّرات يقيس بها مدى صحة ممارسته لعبادته من خلال النظر في الآثار المترتّبة عنها.

ينبّه كثير من الدارسين إلى وجوب الاهتمام بالتعريف بمقاصد أعمال الحج وحكمها وأسرارها حتى لا تبقى ممارسة المسلمين لها ممارسة شكلية، لا تتحقق من ورائها المقاصد العديدة التي شرعت لأجلها، ويؤكّدون أنّ القيام بهذا أضحى فريضة، إعمالا لقاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، "لأنّ فهم مقاصد العبادة وأسرارها وحِكمها يساعد بشكلٍ كبيرٍ في تعظيمها وحضور القلب عند القيام بها، وممّا أضعف أثر الحج في نفوس بعض المسلمين هو الانشغال كثيرًا بالجانب الفقهي لأدائها، وعدم الانتباه والتدبر في الجانب المقاصدي لهذه الفريضة العظيمة"[1].

ومن خلال تدبّرنا للآيات القرآنية المتعلّقة بالحجّ والعمرة نلحظ بشكل واضح تنبيهها إلى المقاصد المختلفة التي شرعت شعيرة الحج والعمرة لتحقيقها، بصيغ مباشرة متصلة بذكر الأعمال تارة، وتارة أخرى بصيغة غير مباشرة من خلال السياق الذي يرد فيه ذكر أعمال الحج والعمرة.

ومثال ما وردت الإشارة إليه من مقاصد بصيغة مباشرة ما جاء في آيات الحج في سورة الحج في قوله تعالى:{**وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ**} [الحج: 27-28]، فقد أشارت الآيتان في بيان مقاصد آذان إبراهيم عليه السلام في النّاس بالحج باستخدام لام التعليل إلى ثلاث مقاصد: شهود المنافع { لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ}، وذكر الله في أيام معلومات {وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ}، وإطعام البائس والفقير { فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ}.

ومثال ما وردت الإشارة فيه إلى المقاصد بطريقة غير مباشرة قوله تعالى:{ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**} [البقرة: 143]، فقد جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن بناء البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود، ودعاء إبراهيم عليه السلام لأهل مكلة بالأمن والرزق والهداية، ليتحقق مقصد إخراج الأمّة الوسط القائمة بواجب الشهادة على النّاس.

ومن خلال تدبّرنا في الآيات المتّصلة بأعمال الحج والعمرة والسياقات القرآنية التي وردت فيها تمكنّا من استخلاص عدد من المقاصد يمكن أن ندرجها تحت العناوين الجامعة الآتية:

المقاصد الإيمانية:

فالمقصد الأول من العبادات عامة ومنها الحج والعمرة هو تفعيل المعاني الإيمانية في القلوب وتنميتها، لتترتب عليها آثارها من الأعمال الصالحة، وهو ما يؤكده محمد المبارك بقوله:" فالعبادة هي التي تجعل العقيدة الإسلامية...حيّة في النفس، وتنقلها من حيّز الفكر المجرّد إلى حيّز القلب الذي يحس ويشعر، فتجعلها بذلك قوة دافعة، لها حرارتها ونورها، فشتان بين من يعلم عقليا ويقتنع بوجود الله ومن يحسّ ويشعر بإشرافه وهيمنته عليه، وبعلمه بسره وعلنه، ويتصور تصورا قلبيا حتمية لقائه وحسابه.

[1] – محمد الخولي، مقاصد الحج في ضوء القرآن الكريم، https://tafsir.net/article/5279.pdf.

فالعبادة في الإسلام هي الوسيلة التي تنقل الإنسان من الحال الأولى إلى الحال الثانية، فهي توقد جذوة العقيدة وتغذّيها وتتغذى بها، وتحييها وتحيى بها"[1].

وهذا المعنى مأخوذ من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، فهو بعض ما يدلّ عليه قول الله تعالى:{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[الحجرات: 14].

وهو ما نبّه عليه كذلك تقديم الإسلام في حديث جبريل[2] على الإيمان، للدلالة على دور أركان الإسلام التي هي العبادات الأساسية في تفعيل أركان الإيمان في القلوب لتكون قادرة على الارتقاء بالمسلمين إلى مقام الإحسان في أعمالهم.

والمعاني الإيمانية الأساسية التي يفعّلها الحج في قلوب المسلمين بحسب ما ترشد إليه الآيات المتعلقة بالحج في القرآن الكريم هي الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر والإيمان بالنبوة.

فآيات الحج تشير في مواطن عديدة إلى الدور الكبير لهذه الشعيرة في تفعيل الإيمان بالله تعالى في قلوب المؤمنين ليتحقق فيها التوحيد الكامل لله تعالى والإخلاص في التوجّه إليه، وينفي عنها ضدّها وهو الشرك في كل مظاهره، وتثمر ذكرا لله في كل الأحوال والمقامات، يعبّر عن حضور دائم لله سبحانه في قلب المؤمن.

وقد نبّه الطاهر بن عاشور في تفسيره إلى أنّ الحج لا يحقّق ذلك بمجرّد توجيهات تقدّمها النصوص القرآنية بل من خلال ممارسات عملية في هذه الشعيرة، ربما كان أهمّها مشاهدة البيت الذي أسّس كرمز لتوحيد الله تعالى والطواف به، وقد سمّاها طريقة تلقي توحيد الله بطريق المشاهدة استخلاصا من قول سبحانه:{ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ}، وبيّن ثمرتها وعلّتها فقال:" ومِن حِكْمَةِ مَشْرُوعِيَّتِهِ تَلَقِّي عَقِيدَةِ تَوْحِيدِ اللَّهِ بِطَرِيقِ المشاهِدَةِ لِلْهَيْكَلِ الَّذِي أُقِيمَ لِذَلِكَ حَتّى يَرْسَخَ مَعْنى التَّوْحِيدِ في النُّفُوسِ لِأنَّ لِلنُّفُوسِ مَيْلًا إلى المحْسُوساتِ لِيَتَقَوّى الإدْراكُ العَقْلِيُّ بِمُشاهَدَةِ المحْسُوسِ. فَهَذِهِ أصْلٌ في سُنَّةِ المؤَثِّراتِ لِأهْلِ المقْصِدِ النّافِعِ"[3].

وفي سورة الحج في سياق آيات بيان بعض أعمال الحج يأتي التوجيه إلى التوحيد والحنيفية السمحة والتنفير من الشرك باعتباره رجسا وقول زور، وتصوير له باعتباره سقوطا حرّا من سماء التوحيد العالية إلى مخاطر ومتاهات مهلكة، قال الله تعالى:{ **فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ، حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**}[الحج: 30-31].

---

[1] – محمد المبارك، نظام الإسلام والعقيدة، ط2، 1423هـ/2003م، دار الفكر، بيروت، ص.164.

[2] – عن عمر رضي الله عنه قال» :بينما نحن جلوسٌ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طَلَعَ علينا رجلٌ شديد بياض الثياب، شديد سَواد الشعر، لا يُرى عليه أثرُ السفر ولا يعرفه منَّا أحدٌ، حتى جلس إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فأسنَد ركبتيْه إلى ركبتيْه، ووضع كفَّيه على فخذيْه، وقال :يا محمد أخبِرْني عن الإسلام؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلامُ أن تشهدَ أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتُؤتِيَ الزَكاة، وتصومَ رمضان، وتحجَّ البيت إن استطعتَ إليه سبيلاً، قال :صدقتَ، فعَجِبْنا له يَسأله ويُصدِّقه، قال :فأخبِرْني عن الإيمان؟ قال :أن تؤمنَ بالله وملائكته وكُتبه ورسُله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدَر خيره وشرِّه، قال :صدقتَ، فأخبِرْني عن الإحسان؟ قال :أن تعبدَ الله كأنَّك تراه، فإن لَم تكن تراه فإنَّه يراك، قال :فأخبرني عن الساعة؟ قال :ما المسؤول عنها بأعلمَ مِن السائل، قال :فأخبرني عن أمَاراتِها؟ قال :أنْ تلِدَ الأَمَةُ ربَّتَها، وأنْ تَرَى الحُفاةَ العُراة العَالَة رِعاءَ الشاءِ يَتَطاوَلون في البُنيان، ثمَّ انطلق فَلَبِثَ مليًّا ثم قال :يا عمر أتدري مَن السائل؟ قلتُ :الله ورسوله أعلم، قال :فإنَّه جبريلُ أتاكم يعلِّمُكم دينَكم". مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسلام والإيمان والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى، حديث رقم 8، 36/1.

[3] – الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، 243/17.

وفي الآيات التي أمرت بالقيام بأعمال الحج والعمرة في سورة البقرة، جاء التوجيه إلى أمرين اثنين: إتمام الحج والعمرة أي الحرص على الإتيان بالصورة التامة الكاملة في القيام بها، وفعلهما ابتغاء الله ومرضاته، وفيه تعميق للإخلاص لله تعالى في قلب الحاج، قال الله تعالى:{ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ}[البقرة 197].

ومن تفعيل الإيمان بالله تعالى في أعمال الحج ومناسكه التي أكّدت عليها آيات الحج في سورة البقرة، الإكثار من ذكر الله أثناء القيام بالمناسك، وبعد الفراغ منها، وهو ما نلحظه في قوله تعالى:{ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (198) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (199) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا} [البقرة: 198- 200]

يؤكّد ابن القيم أنّ ذكر الله مقصد لجميع الممارسات التعبّدية ومنها أعمال الحج فيقول:" وأما مصاحبته لجميع الأعمال واقترانه بها وأنه روحها: فإنّه سبحانه قرنه بالصلاة كقوله :وأقم الصلاة لذكري وقرنه بالصيام وبالحج ومناسكه، بل هو روح الحج ولبّه، ومقصوده، كما قال النبي ﷺ: "إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله""[1][2].

كما تفعّل شعيرة الحج الإيمان باليوم الآخر في قلوب الحجاج، من خلال مواقف متعدّدة في هذه الشعيرة، بدءا بالسفر للحج وترك المال والولد والوطن، والتجرّد من الزينة في الإحرام، والاجتماع في الوقوف في جبل عرفة التي تجعل الحجيج يتشبهون بأهل المحشر، ثمّ إفاضتهم من عرفات في مشهد عظيم يجعلهم يعيشون بعض ما حدّثهم عنه القرآن من مواقف يوم القيامة.

نبّه ابن القيم إلى الأسلوب القرآني في آيات الحج الذي ينقل الحاج من الدنيا إلى الآخرة، فقال معلّقا على قوله تعالى:{وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} [البقرة 197]: "أمر الحجاج بأن يتزودوا لسفرهم، ولا يسافروا بغير زاد، ثم نبّههم على زاد سفر الآخرة، وهو التقوى، فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يبلغه إياه، فكذلك المسافر إلى الله تعالى والدار الآخرة لا يصل إلّا بزاد من التقوى، فجمع بين الزادَين"[3].

ومن الأمور التي تتصل بالإيمان باليوم الآخر والتي نلحظ الإشارة إليها في سياقات الآيات التي تحدّثت عن أعمال الحج، التنبيه إلى أنّ الإيمان باليوم الآخر حين يفعل بشكل سليم في قلوب الحجيج والمعتمرين فإنّه يثمر توازنا في التعامل مع الحياة الدنيا، لا بفتتن بها فتنسيه الدار الاخرة، ولا يزهد فيها فيقصّر في القيام بواجب العمارة والإفادة من المنافع التي سخّرها الله له.

ونجد الإشارة إلى هذا المقصد في سياق آيات الحج في سورة البقرة التي نلحظ فيها مجيء قوله تعالى:{ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} وسط الآيات التي تدعو إلى القيام بمناسك الحج في قول الله تعالى:{ **فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ، وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**}[البقرة: 200- 203]، كما نجد الإشارة إلى هذا المقصد في الآية التي تنفي الجناح والإثم عن المشتغل بأمور الدنيا في أيام الحج، وتنبّه إلى عدم تعارض ذلك مع

---

[1] – أبو داود سليمان بن الأشعث السجتياني، سنن أبي داود، ت محمد عبد العزيز الخالدي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1416 هـ/1996م، كتاب المناسك باب في الرمل، (حديث رقم: 1888)

[2] – ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، د.تا، 2/ 399.

[3] – ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، د. ط، دار عالم الفوائد، مكة، د.تا ،1/ 58.

القيام بمناسك الحج، وذلك في قوله تعالى:{ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ**} [البقرة:198].

ومن المعلوم أن تحقيق هذا المقصد ليس خاصا بشعيرة الحج، بل هو مقصد لكل العبادات صلاة وصياما وزكاة، ويكفي أن نورد كمثال على ذلك تحقيق الصلاة لهذا المقصد، من خلال ثناء الله على رجال استطاعوا أن يحقّقوا بين أعمالهم الدنيوية وعباداتهم، كما يشير إليه قول الله تعالى:{**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ، رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ**} [النور: 36-37].

كما تفعّل ممارسة أعمال الحج والعمرة الإيمان بأنّ الله اصطفى أنبياء ورسلا ليقوموا بإرشاد الإنسانية إلى ما ينفعها في دنياها وآخرتها، وذلك من خلال ربط شعائر الحج والعمرة بآثار النبوة في مكّة وما جاورها من الأماكن التي يتنقل الحجاج إليها للقيام بأعمال الحج.

فالبيت يذكرهم بالخليل إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وتذكرهم صلاتهم بعد طوفهم عند مقام إبراهيم عليه السلام، بالمقام العالي الذي بلغة عند ربّه سبحانه، حين جعله مثلا لصورة المسلم الكامل التي يجب على المسلمين أن يبذلوا جهودا للارتقاء في اتجاهها، ويتردّد على مسامع الحجاج في هذه اللحظات المباركة قول الله تعالى:{ **وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ، إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**} [البقرة: 130-131]، والسعي بين الصفا والمروة يذكرهم بزوج إبراهيم وابنه إسماعيل وعظيم توكّلهم على الله تعالى وتضحياتهم لإنشاء مجتمع التوحيد.

كما تذكّرهم هذه المشاهد ووقوفهم بعرفات بخاتم الأنبياء محمد ﷺ الذي أرسل رحمة للعالمين، ويعيشون وهم بعرفات لحظات وصاياه الأخيرة في خطبة حجة الوداع.

وإن لم تكن زيارة المدينة جزءا من أعمال الحج، إلاّ أنّ الحجاج والمعتمرين لا يغادرون أرض الحجاز إلا بعد زيارة مدينة رسولهم ﷺ وأهم آثاره فيها، ليصلّوا في مسجده حيث وضع الأسس الأولى لبناء المجتمع الإسلامي، وربى الجيل الأول من صحابته، وأخرج منهم خير أمة، ويسلّموا عليه تعبيرا منهم عن حبّهم له وفائهم لعهده، وكلّ ذلك يعمّق من إيمانهم به، ويزيدهم محبّة له.

ونختم حديثنا عن المعاني الإيمانية التي تفعّلها شعائر الحج العمرة في قلوب الحجاج والمعتمرين بهذه الكلمات العميقة لأحد علماء المسلمين حجّ البيت وسجّل أهمّ الانطباعات التي تركتها رحلة الحج في قلبه ونفسه في كتاب جعله بعنوان "حقيقة الحج"، وأكّد فيها عظمة الأثر الذي تتركه بيئة الحرم في الحجاج والمعتمرين حيث قال: "وقد اكتسبت ديار الحرم أهمية غير عادية بسبب مثل هذه التقاليد والخصائص، فظهرت بها بيئة روحانية وتاريخية من نوع خاص، فلا يبقى شخص يزورها إلا ويتأثّر بها أعمق التأثر، وهو يعود بعد الحج كما يعود شخص قذر بعد أن يستحم في مياه نهر صاف"[1].

المقاصد الأخلاقية:

الفصل بين مقاصد إيمانية ومقاصد أخلاقية ومقاصد اجتماعية هو فصل لأجل الدراسة، أما في الحقيقة والواقع فإنّ عملية الفصل بينها غير ممكنة، لما يوجد من تداخل وتبادل للتأثر والتأثير فيما بينها، فالعوامل التي تؤثر في الإيمان تؤثر كذلك في الأخلاق والاجتماع.

[1] – وحيد الدين خان، حفيفه الحج، ترجمة ظفر الدين خان، ط1، 1408هـ/1987م دار الصحوة للنشر، القاهرة، ص.16.

وهذا التداخل هو بعض ما بنبّه إليه حديث الإيمان بضع وسبعون شعبة[1]، فذكر في أعلاها كلمة التوحيد، وذكر في أدناها سلوكا اجتماعيا وهو إماطة الأذى عن الطريق، وأكّد أن الحياء وهو خلق من الإيمان.

فشهود الحجاج والمعتمرين لمعالم النبوة في أرض الحج لا يقوّي إيمانهم بالنبوة فحسب، بل إنه ينّمي فيهم كذلك الجوانب الأخلاقية التي بلغ فيها هؤلاء الأنبياء عليهم السلام الدرجات العالية، بل شهد الله العظيم لخاتمهم محمد ﷺ بهذه الشهادة العظيمة في قوله سبحانه:{ **وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**} [النجم: 4]، وأشادت كثير من آيات القرآن الكريمة بالجاذبية الأخلاقية التي كانت تتمتع بها شخصيته ﷺ، كمثل قوله تعالى:{ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**}[آل عمران: 159]، وقوله سبحانه:{ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**}[التوبة: 128].

كما يشيد القرآن الكريم بأخلاق إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في عدد من الآيات القرآنية، منها شهادة عظيمة في حق إبراهيم عليه السلام في قوله سبحانه:{**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**} [النحل: 120-122]، قوله سبحانه في حقّ إبراهيم:{**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**}[التوبة: 114]، وقوله سبحانه في حق إسماعيل:{**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا، وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا**}[مريم:54-55].

وأول النصوص المتعلّقة بالحج التي نبّهت إلى الجانب الأخلاقي وضرورة الاهتمام بترقيته عند الحاج قول الله تعالى:{**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**} [البقرة: 197].

فقد أوجبت الآيات على من عزم على الحج في الأشهر المعلومات التي هي شوال وذو القعدة وذو الحجة أن يبذل جهدا في التخلّص من بعض الأخلاق السلبية التي قد تحرمه من قطف ثمرات شعائر الحج ومناسكه، وتؤثر بالسلب على علاقته بإخوانه الحجيج، ويقبل على فعل الخير إقبالا يليق بالشعيرة وبالمكان الذي يؤدّي فيه حجّه.

وننبّه إلى أن العازم على الحج يكون قد خرج بنهاية شهر رمضان وبداية شهر شوال من دورة تربوية في الصيام أكسبته الكثير من الأخلاقيات المتصلة بعبادة الصيام، مثل الصبر على شهوتي البطن والفرج، والقدرة على التحكّم في النفس عند تعرّضه لاستفزازات الجاهلين سبابا أو خصومة، والإقبال على فعل الخير، ويطلب منه أن يحافظ على هذه المكتسبات الأخلاقية، ويزداد حرصا عليها في أيام الحج.

[1] – عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً» :الإيمانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أو بِضْعٌ وسِتُّونَ شُعْبَةً: فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لا إله إلا الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ" مسلم، صحيح مسلم، مرجع سابق، حديث رقم 58.

وقد أوجبت الآيات على الحاج الابتعاد الكليّ عن الرفث والفسوق والجدال، بصيغة علّق عليها الطاهر بن عاشور بقوله:" وقد نفى الرفث والفسوق والجدال نفي الجنس مبالغة في النهي عنها وإبعادها عن الحاج، حتى جعلت كأنها قد نهي الحاج عنها فانتهى فانتفت أجناسها"[1].

وقد ذكر المفسّرون أنّ الرفث في اللغة هو اللغو من الكلام والفحش، والمراد به في الآية الكناية عن قربان النساء، ورجّح ابن عاشور أن يكون معناه في الآية جامعا بين الأمرين اللغو والفحش في الكلام وقربان النساء، وذكر سبب ترجيحه لذلك فقال:" وأحسب أنّ الكناية بهذا اللفظ دون غيره لقصد جمع المعنيين الصريح والكناية"[2]، والفسوق هو الخروج عن الطاعة والوقوع في المعاصي، والغالب أن يطلق على الوقوع في كبائر الذنوب[3]، والجدال الكلام المقرون بالمنازعة.

كما وجهّت الآيات دعوة للحاج أن يسارع في فعل كل خير يقدر عليه، وليكن الدافع له إلى ذلك ابتغاء مرضاة ربّه الذي يعلم كل خير مهما كان صغيرا وبعيدا عن أنظار الناس يفعله الحاج، وقد علّق أحد المفسّرين على قوله تعالى:**{ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ}** فقال:" وهذا أول لطف إلهي يناله الصالحون، فالمرحلة الأولى من لذة الإنسان المؤمن هي إحساسه بأن ما يعمله في سبيل الله إنما هو بعين الله، ويا لها لذة"[4].

وينبّه السعدي في تفسيره إلى معنى آخر يربط به بين مجيء الدعوة إلى فعل الخير بعد النهي عن الرفث والفسوق والجدال فيقول: "واعلم أنّه لا يتم التقرّب إلى الله بترك المعاصي حتى يفعل الأوامر، ولهذا قال تعالى: {وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ} أتى بـ " من "للتنصيص على العموم، فكلّ خير وقربة وعبادة، داخل في ذلك، أي: فإن الله به عليم، وهذا يتضمن غاية الحث على أفعال الخير، وخصوصا في تلك البقاع الشريفة والحرمات المنيفة، فإنه ينبغي تدارك ما أمكن تداركه فيها، من صلاة، وصيام، وصدقة، وطواف، وإحسان قولي وفعلي"[5] .

وبهذا الابتعاد عن المثيرات الشهوانية والمثيرات الغضبية التي تفقد الإنسان اتّزانه وتضاعف من تأثيرات جوانب ضعفه عليه، وبالإقبال على عمارة الأوقات بأفعال الخير، تزداد قدرة الحاج على الارتقاء والسمو بروحه، وتتجلى آثار ذلك على أخلاقه.

وهو ما عبّر عنه أحد المفسّرين في عبارات دقيقة بقوله:" وهكذا ينبغي أن تكون أجواء الحج طاهرة من التمتعات الجنسية وكذلك من الذنوب والجدال العقيم وأمثال ذلك، لأنها أجواء عبادية تتطلب الإخلاص وترك اللذائذ المادية وتقتبس روح الإنسان من ذلك المحيط الطاهر قوة جديدة تسوقها إلى عالم آخر بعيدا عن عالم المادة، وفي نفس الوقت تقوي الألفة والاتحاد والاتفاق والاخوة بين المسلمين باجتناب كل ما ينافي هذه الأمور".[6]

---

[1] – الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، 233/2.

[2] – الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، 234/2

[3] – في الفروق للقرافي:" الذنوب منقسمة إلى صغائر وكبائر، وهذا هو الأظهر من جهة الكتاب والسنة والقواعد، أما الكتاب فقوله تعالى { وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان} فجعل الكفر رتبة والفسوق رتبة ثانية والعصيان يلي الفسوق وهو الصغائر، فجمعت الآية بين الكفر والكبائر والصغائر وتسمى بعض المعاصي فسقا دون البعض"، 1431هـ/2010/، دار النوادر، الكويت، 121/1

[4] – الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، 52/2.

[5] – السعدي، مرجع سابق، ص.93.

[6] – الشيرازي، مرجع سابق، 51./2

والنص الثاني الذي نستلهم منه بعض المعاني المتّصلة بتفعيل الجانب الأخلاقي في شخصية الحاج هو قول الله تعالى:{**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ، الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**} [الحج:34-35].

فقد جاء قوله تعالى: {وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} في سياق آيات تتحدث عن مناسبك الحج، للدلالة على أنّ القيام بهذه المناسك من شأنه أن يجعل القائم بها من المخبتين، والمخبت كما عرّفه ابن عاشور في تفسيره هو المتواضع الذي ليس فيه شيء من الكبر، رابطا معناه بالمعنى الأصلي لكلمة الخبت حيث قال:" والمخْبِت : المتواضع الذي لا تكبُّر عنده، وأصل المخبت مَن سلك الخَبْت، وهو المكان المنخفض ضدّ المصعد، ثمّ استعير للمتواضع كأنه سلك نفسه في الانخفاض"[1]، ويذكر السعدي في تفسيره أنّ المخبت هو:" الخاضع لربه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده"[2]، والظاهر أنه فسّر الكلمة في سياق الآية التي وردت فيها، والتي تنبّه إلى صفات المخبتين بأنهم من تجل قلوبهم عند ذكر الله، والصابرون على ما أصابهم والمقيمون الصلاة والمنفقون.

ويمكن أن نجمع بين التعريفين فنفسّر المخبت بالمتواضع الذي ليس فيه شيء من الكبر كما فسّره ابن عاشور، ونبيّن أنّ تواضعه كانت نتيجة ممارسة تعبّدية.

وينسجم هذا التفسير مع ما ورد في ذكر صفات عباد الرحمن في سورة الفرقان حيث أشارت الآية الأولى منها إلى اتصاف عباد الرحمن بصفة التواضع والصبر على الجاهلين، ثم بيان لبعض أسباب اكتسابهم لهاتين الصفتين في الآيات الموالية، وهي شغفهم بعبادة مولاهم وإيمانهم باليوم الآخر، قال الله تعالى:{**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا**}[الفرقان: 63-66].

وكذلك الأمر بالنسبة لهؤلاء المخبتين، فتواضعهم الذي لا كبر معه ناتج عن إيمان قوي يجعل قلوبهم وجلة عند ذكره، وتعظيمهم لشعيرة الصلاة وحرصهم على إقامتها، وإنفاقهم ممّا رزقهم الله.

وإن كان ابن عاشور يعتبر ما ذكر بعد صفة الإخبات مظاهر وتجليات لها وليست سببا لها كما ذكرنا، فهو يقول:" وكلّ الصفات الأربع مظاهر للتواضع، فليس المقصود من جمع تلك الصفات لأن بعض المؤمنين لا يجد ما ينفق منه، وإنما المقصود من لم يخلّ بواحدة منها عند إمكانها"[3].

وتوسّطت هذه الصفات صفة الصبر في قوله تعالى:{وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ}، وهي في تقديرنا تقابل ما وصف به عباد الرحمان من صبر على خطاب الجاهلين وقولهم سلاما.

وبهذا التفسير يتبيّن لنا دور القيام بشعيرة الحج بما فيها من عبادات وقربات في تحقيق الارتقاء الأخلاقي للحاج، لتظهر تجلياته في علاقاته بالآخرين من حوله.

---

[1] –الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، 260/17-261

[2] – السعدي، مرجع سابق، ص.538.

[3] - الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، 261/17

نقطة أخيرة ننبّه إليها ولها دور في تحقّق الارتقاء الأخلاقي للحاج، وهي التقاؤه بالحجاج تتفاوت مستوياتهم العلمية والأخلاقية في أمكنة واحدة لفترات من الزمن غير قليلة، وفي أجواء خاصة، وهو ما يسمح بانتقال الأخلاق الحسنة بين الحجاج، وتأثر بعضهم ببعض، كما يتأثر الجليس بجليسه للحظات، بله إذا تواصلت هذه المجاورة ليالي وأياما عديدة.

المقاصد الاجتماعية:

ومن الطبيعي أن تترتّب على تفعيل الإيمان في قلوب الحجاج والارتقاء بأخلاقهم آثار على الجانب الاجتماعي من حياتهم، ونريد هنا في حديثنا عن المقاصد الاجتماعية أن ننبّه إلى ما أشارت إليه الآيات القرآنية وما تثمره ممارسة أعمال الحجّ من جوانب اجتماعية في شخصيات الحجّاج كأفراد وكجماعات، تؤهّلهم لأن يكونوا أعضاء فاعلين في الحياة الاجتماعية لمجتمعاتهم.

وأول ما ننبّه إليه من مقاصد اجتماعية للحج والعمرة، هو تعليم الحاج والمعتمر الانضباط في القيام بأعماله في أوقاتها المحددة، وبالترتيب الذي شرعت به، دون تقديم أو تأخير.

فـ{ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ} في وقتها، ولها مواقيت مكانية يجب أن يحرم الحاج أو المعتمر منها بحسب المنطقة التي يأتي منها إلى مكّة، والوقوف بعرفة يوم محدّد هو اليوم التاسع من ذي الحجة، ووقت محدد، ولرمي الجمرات في منى أيام محدّدة، لا تقل عن يومين، ولا تزيد عن ثلاث.

ونلحظ الإشارة إلى أوقات الأعمال والترتيب بينها في قوله تعالى:{**فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ، ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آَبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا**}[البقرة: 198-200]، وفي في قوله تعالى:{ **وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**}[البقرة:203].

وهذا الانضباط والالتزام بالأوقات في القيام بالأعمال يتلقاه المسلمون من الحج ومن سائر العبادات التي يقومون بها، فالصلاة التي هي عبادة يومية شرعت لها أوقات محدّدة يجب أداؤها فيها، ولا يجوز تأخيرها عنها إلا لعذر قاهر، وأورد هنا كلاما مهما للإمام عبد الحميد بن باديس يبيّن فيه ما يجب أن يتعلّمه المسلم من ربط الصلوات بأوقات حيث يقول:"في ربط الصلاة بالأوقات تعليم لنا لنربط أمورنا بالأوقات، ونجعل لكل عمل وقته، فللنوم وقته وللأكل وقته وللراحة وقتها، ولكلّ شيء وقته، وبذلك ينضبط للإنسان أمر حياته، وتطرد له أعماله ويسهل عليه القيام بالكثير من الأعمال.

أما إذا ترك أعماله مهملة غير مرتبطة بوقت فإنه يضطرب عليه أمره، ويتشوّش باله، ولا يأتي إلاّ بالعمل القليل ويحرم لذة العمل، وإذا حرم لذّة العمل أصابه الكسل والضجر، فقلّ سعيه وكان ما يأتي من العمل – على قلّته و تشويشه- بعيدا عن أيّ إتقان"[1].

ثاني المقاصد الاجتماعية التي تعمل أعمال الحج والعمرة على تحقيقها في شخصيات الحجاج وأعمالهم، تنمية الشعور بالانتماء إلى جماعتهم ومجتمعهم وأمّتهم.

فالخطاب الموجه للمسلم للقيام بأعمال الحج والعمرة كما هو الخطاب الموجه إليه للقيام بالعبادات الأخرى إنما يتمّ توجيهه إلى الجماعة لا إلى الفرد، كما نلحظه في مثل قوله تعالى:{**وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ**} [البقرة: 196]، وفي قوله تعالى:{ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ**

[1] – عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ط1، دار البعث، قسنطينة، 1402هـ/1982م، ص. 176.

فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ، ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آَبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا} [البقرة: 198-200].

فأعمال الحج وإن كانت ممارسة فردية طوافا وسعيا ووقوفا بعرفة ورميا للجمرات، لكنّها بحكم ربطها بأوقات معينة وبكيفيات محدّدة فإنها تؤدّى غالبا في إطار جماعي، يطوف فيه الحاج ويسعى ويقف في عرفات ويرمي الجمرات مع عدد كبير من إخوانه المسلمين القادمين إلى البقاع المقدّسة من كلّ أنحاء العالم.

وبذلك يتعلّم الحاج القيام بأعماله في إطار جماعي، وهو ما يعطي قوة لهذه الأعمال، ويسدّ ما فيها من نقص أو قصور، ويضاعف من أثرها في حياة الفرد والمجتمع، قال وحيد الدين خان:" وهكذا تدور مناسك الحج الأخرى..فهي تعلّمنا بأسلوب أو بآخر أن نتحد وأن نعمل معا، فهذه المناسك مظاهرة عملية للعمل المتناغم"[1].

ثالث المقاصد الاجتماعية التي يعمل الحج على تحقّقها في الحجاج إكسابهم صفة احترام القوانين المنظّمة للحياة الاجتماعية، وهو أمر ضروري لقيام المجتمعات ونهوضها والمحافظة على أمنها ونظامها.

ومن الأمثلة على ذلك في أعمال الحج، الطواف والسعي، فقد جعل لهما قانون منظّم للحركة فيهما ولعدد الأشواط فيهما، يجب على الحجاج التزامه، والإتيان في القيام بهما بالصفة التي شرعا بها، وهو ما يحقّق في قيام الحجاج بهما نظاما عجيبا، يجب أن يستفيدوا منه في حياتهم الاجتماعية.

قال وحيد الدين خان وهو ينبّه إلى أهمية التزام الحدود في السعي بين الصفا والمروة وآثاره في الحياة الاجتماعية:" ثم يسعى الحاج بين الصفا والمروة، فينطلق من جانب الصفا ثم يعود إليه، وهو يفعل هذا سبع مرات، وهذا يعلمنا بصورة عملية أن يكون مسعانا في حياتنا داخل حدود معينة فلو لم تكن لنا حدود أو ظللنا نتجاوزها فسينفلت بعضنا إلى جانب بينما سيضيع البعض الآخر منا في جانب آخر، ولكن عندما نضع حدودا معينة لمسعانا فنحن سنعود دوما إلى حيث إخواننا"[2].

وربما كان المثال الأوضح لتدريب الحاج على التزام القوانين والتنظيمات هو الآيات التي حرّمت على المحرم صيد البرّ، وترتيب جزاء على من أخلّ بهذا المنع متعمّدا، وفيه تعليم للحاج أن يتحمّل مسؤوليته تجاه القوانين المنظّمة لشؤون مجتمعه، والحرص على احترامها، وتحمّل تبعات الإخلال بها.

قال الله تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ، أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}**[المائدة: 95-96].

هذه بعض المقاصد التي اخترنا الوقوف عندها، لنبيّن من خلالها اهتمام القرآن الكريم ببيان مقاصد أعمال الحج والعمرة، ترغيبا في القيام بها والحرص على الإتيان بها كاملة، وتبصيرا بالآثار التي ينبغي أن ترتّب عليها في الجوانب الإيمانية والأخلاقية والاجتماعية.

---

[1] -وحيد الدين خان، مرجع سابق، ص.75

[2] - وحيد الدين خان، مرجع سابق، ص. 74

ويكشف مزيد من التدبّر في آيات الحج في القرآن الكريم عن مقاصد أخرى كثيرة لم نتمكن من الوقوف عندها في مداخلتنا، لأنّنا لم نقصد منها ذكر كلّ المقاصد، بل اختيار بعضها لنبيّن من خلالها اهتمام القرآن الكريم بالتنبيه إلى هذه المقاصد في دعوته للمكلفين للإقبال على العبادة العظيمة، وتبصيرهم ببعض الثمرات التي تنتج عن ممارستهم لها في حياتهم الفردية والاجتماعية.

خاتمة:

وفي خاتمة هذه المداخلة أسجّل أهمّ النتائج التي وصلت إليها من خلال دراسة موضوع مقاصد الحج والعمرة في القرآن الكريم دراسة تأصيلية:

-خلصنا إلى أنّ العبادات لها مقاصد أو حكم وأسرار، قد نتمكّن من إدراك بعضها، ونعجز عن إدراك أخرى، لكنّ هذا لا ينفي أنّ لها أسرارا وحكما، جُملية وتفصيلية، وغالب ما ندركه منها مقاصد جُملية.

- أسلوب التنبيه إلى المقاصد هو أسلوب اعتمده القرآن الكريم في إقناع المخاطبين إقناعا عقليا ووجدانيا بأوامره سواء كانت متعلّقة بالعبادات أم بالمعاملات.

- الهدف من هذا الأسلوب بالإضافة إلى الإقناع هو إعطاء مؤشّرات يمكن للمكلّف أن يقيّم ويقوّم من خلالها ما قام من عمل، ليدرك هل حقّق من خلال العمل الثمرات المرجوة منه أم لا، لينتبه إلى ما في قيامه بالعمل من خلال أو قصور.

-وصلنا من خلال استقرائنا لآيات الحج في القرآن الكريم أنّها لا تنحصر فقط في الآيات المتعلّقة بأعمال الحج وأحكامه، بل تشمل كلّ الآيات التي تحدّثت عن أمور لصيقة بالحج والعمرة سواء كانت شخصيات أم امكنة أم ممارسات خاطئة لهذه الشعيرة، وفي كلّ هذه الآيات نلحظ تنبيها إلى المقاصد من الحج والعمرة.

-بيّنا أن طريقة القرآن الكريم في الدلالة على مقاصد الحج والعمرة فد تكون مباشرة من خلال الإشارة إلى هذه المقاصد من خلال الآيات التي تتحدّث عن هذه الأعمال، وقد تكون غير مباشرة من خلال السياقات العامة للآيات التي ترد فيها أعمال أو من خلال الآيات التي تتحدّث عن أمور لصيقة بالحج والعمرة.

-تمكنّا من خلال التدبّر في سياقات الآيات القرآنية المتعلّقة بالحج والعمرة من استخلاص مجموعة من المقاصد التي تعمل عبادة الحج والعمر على تحقيقها في الحاج والمعتمر، وجمعنا هذه المقاصد تحت عناوين رئيسة ثلاث: مقاصد إيمانية، مقاصد أخلاقية، مقاصد اجتماعية.

-ذكرنا في المقاصد الإيمانية عمل أعمال الحج والعمرة على تفعيل الإيمان بالله تعالى والإيمان باليوم الآخر والإيمان بالنبوة في قلوب المعتمرين والحجّاج من خلال المشاهدة أو ما أطلق عليه ابن عاشور "تلقي الشهود" وليس من خلال التوجيهات المباشرة.

-أشرنا إلى أنّ شعيرة الحج والعمرة توفّر للحاج والمعتمر أجواء تسمح له بالارتقاء بأخلاقه، منها آثار النبوة الحاضرة في أماكن أداء الشعائر، ومنعه من ممارسات قولية وفعلية تحول دون هذا الارتقاء، وثمرة هذه الأجواء والتوجيهات هي إخراج من سمّاه القرآن مخبتا، وهو من بلغ درجة من الكمال الأخلاقي من أهمّ تجلياتها التواضع.

- النوع الثالث من المقاصد التي هي المقاصد الاجتماعية ذكرنا ثلاثة نماذج لجوانب اجتماعية تثمرها ممارسة الحج والعمرة وهي: الانضباط في القيام بالأعمال في الأوقات المعيّنة وبالكيفيات المحدّدة، وتنمية الشعور بالانتماء إلى الجماعة والمجتمع والأمّة، واحترام القوانين المنظّمة للحياة الاجتماعية.

التوصيات:

من خلال بحثي لموضوع مقاصد الحج والعمرة في القرآن الكريم، وما وصلت إليه من نتائج أوصي بما يلي:

-تعميق البحث في الموضوع من خلال القرآن الكريم في دراسات أوسع وأاشمل وأعمق، فالموضوع على أهميته لا يزال بحاجة إلى مزيد من الدراسات الجادة.

-دراسة موضوع مقاصد الحج والعمرة من خلال السنّة النبوية لما يتوفر فيه من بيانات تفصيلية من شأنها أن تساعد كثيرا على فهم بعض المقاصد التي يشير إليها القرآن الكريم إجمالا.

-كما أوصي الجهات المكلّفة بتوعية الحجّاج من أئمة ومرشدين ومشرفين على دورات تدريب الحجاج بضرورة الاعتماد على القرآن الكريم فيما ينبّه إليه من مقاصد مهمّة، في قيامهم بواجبهم التوعوي والإرشادي، لعلّ ذلك يبصّر الحجاج والمعتمرين بحقيقة هذه الشعيرة التعبّدية ويمكّنهم من قطف ثمراتها، وتجاوز مرحلة الأداء الشكلي لها.

Conclusion:

At the end of this intervention, I will record the most important results that I reached through studying the subject of the purposes of Hajj and Umrah in the Holy Qur'an, a fundamental study:

-We concluded that acts of worship have purposes or wisdom and secrets, we may be able to comprehend some of them, and we are unable to comprehend others, but this does not negate that they have secrets and judgments, both general and detailed, and most of what we perceive of them has overall purposes.

-The method of alerting the objectives is a method adopted by the Holy Qur'an in persuading the addressees mentally and emotionally with its commands, whether they are related to acts of worship or dealings.

- The aim of this method, in addition to persuasion, is to give indicators through which the taxpayer can evaluate and correct what he has done, to realize whether he has achieved through the work the desired fruits or not, to pay attention to what is in his doing the work through or shortcomings.

Through our extrapolation of the verses of Hajj in the Holy Qur'an, we have come to the conclusion that they are not limited only to the verses related to the actions of Hajj and its rulings, but rather include all the verses that spoke about matters related to Hajj and Umrah, whether they were personalities, places, or wrong practices of this ritual, and in all these verses we notice an alert to The purposes of Hajj and Umrah.

We have shown that the method of the Holy Qur'an in denoting the purposes of Hajj and Umrah may be direct by referring to these purposes through the verses that talk about these actions, and it may be indirect through the general contexts of the verses in which actions are mentioned or through the verses that talk about Things related to Hajj and Umrah.

-Through contemplation on the contexts of the Qur'anic verses related to Hajj and Umrah, we were able to extract a set of purposes that the Hajj and Umrah worship works to achieve in the Hajj and Umrah performers, and we gathered these purposes under three main headings: faith purposes, moral purposes, and social purposes.

- We mentioned in the Objectives of Faith the work of Hajj and Umrah acts to activate faith in God Almighty, faith in the Last Day, and faith in prophecy in the hearts of pilgrims and pilgrims through witnessing or what Ibn Ashour called "receiving witnesses" and not through direct directions.

- We pointed out that the rituals of Hajj and Umrah provide the pilgrim and performer with an atmosphere that allows him to improve his morals, including the effects of prophecy present in the places of performing rituals, and preventing him from verbal and actual practices that prevent this advancement, and the fruit of this atmosphere and directives is the output of what the Qur'an called hidden, and he is the one who reached a degree One of the most important manifestations of moral perfection is humility.

- The third type of purposes, which are social purposes. We mentioned three examples of social aspects that the practice of Hajj and Umrah bears fruit, namely: discipline in carrying out actions at specific times and in specific manners, developing a sense of belonging to the group, society and the nation, and respecting the laws regulating social life.

Recommendations:

Through my research on the subject of the purposes of Hajj and Umrah in the Holy Qur'an, and the results I reached, I recommend the following:

-Deepening research on the subject through the Holy Qur'an in broader, more comprehensive and deeper studies. The subject, despite its importance, still needs more serious studies.

-Studying the subject of the purposes of Hajj and Umrah through the Sunnah of the Prophet, because of the available detailed data that would help a lot in understanding some of the purposes referred to in the Holy Qur'an in general.

-I also recommend the authorities charged with educating the pilgrims, including imams, guides, and supervisors of the pilgrims' training courses, of the need to rely on the Holy Qur'an for the important purposes it points to, in carrying out their educational and guiding duties, perhaps this will enlighten the pilgrims and performers of the pilgrims to the truth of this devotional ritual and enable them to reap its fruits, and pass the stage of performance. its formality.

قائمة المصادر والمراجع

-القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

كتب السنّة:

-ابن إسماعيل البخاري، أبو عبد الله محمد ، صحيح البخاري، ط1، ، دار ابن كثير، دمشق بيروت، 1423هـ/ 2002م ،

-ابن الأشعث السجتياني، أبو داود سليمان، سنن أبي داود، ت محمد عبد العزيز الخالدي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1416 هـ/1996م.

-ابن الحجاج القشيري النيسبوري، أبو الحسين مسلم ، صحيح مسلم، ط1، درا إحياء الكتب العربية، بيروت، 1412هـ/1991، 4/ 2319،

-ابن انس، مالك ، الموطأ برواية أبي مصعب الزهري، ط1، دار التأصيل، القاهرة، 1437هـ/ 2016 م.

كتب التفسير:

-ابن باديس، عبد الحميد ، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ط1، دار البعث، قسنطينة، 1402هـ/1982م

-ابن عاشور، الطاهر ، تفسير التحرير والتنوير، ج17، الدار التونسية للنشر، تونس، 1980

-ابن عاشور، الطاهر ، تفسير التحرير والتنوير، ج7، الدار التونسية للنشر، تونس، 1980

-ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، ط1، ، دار ابن حزم، بيروت، 1420هـ/2000م.

-الرازي، فخر الدين ، تفسير الفخر الرازي، ط1، 1401هـ/1980م، دار الفكر، بيروت.

-السعدي، عبد الرحمن الناصر ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ط1، 1423هـ/ 2002م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

-مكارم الشيرازي، ناصر ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل – ج2

كتب أخرى:

-ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن ايوب ، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، د. ط، دار عالم الفوائد، مكة، د.تا.

-ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن ايوب ، مدارج السالكين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، د.تا.

-خان، وحيد الدين ، حفيفه الحج، ترجمة ظفر الدين خان، ط1، 1408هـ/1987م دار الصحوة للنشر، القاهرة.
-الشاطبي، أبو سحاق ، الموفقات في أصول الشريعة، تحقيق عبد الله دراز، ج2، دار الفكر العربي.
-المبارك، محمد، نظام الإسلام والعقيدة، ط2، 1423هـ/2003م، دار الفكر، بيروت.

مقالات:

-الخولي، محمد ، مقاصد الحج في ضوء القرآن الكريم، https://tafsir.net/article/5279.pdf
-عبد الله ناصر يوسف عبد الله، مقاصد العبادة في القرآن الكريم، مجلة العلوم الإسلامية، العدد 14، المجلد 2، 1434هـ/ 2013م، كلية العلوم الإسلامية، الجامعة العراقية،
https://coism.mosuljournals.com/article_75691_9390eeba2edbe17a10dab39458f6696c.pdf